مولد الرسول عيد البشرية

« نص الكلمة التى ألقاها فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصى فى الاحتفال الكبير الذى أقامته جمعية الشبان المسلمين بمناسبة المولد النبوى ، وفيه أذاعت محطة الإذاعة مسرحية (مولد الرسول) تأليف فضيلة الأستاذ الشرباصى ، وقد أوفد جلالة الملك المعظم فاروق الأول إلى شهود هذا الاحتفال الكبير سكرتير جلالته المساعد الخاص سعادة أحمد بك على يوسف » .

قد يكون للمرء فى حياته لحظات خالدة يرعاها ويهواها ، ولكن غيره من الأفراد لا يحسون بها ، ولا يشاركونه فى تعظيمها .

وقد يكون للأمة الواحدة أعياد تتلقاها بالتمجيد والتكريم ، ولكن غيرها من الأمم لا تقاسمها الفرحة أو الغبطة بتلك الأعياد . . .

ولا يتيسر للبشرية أن تشترك فى فرحة عامة كبرى إلا فى يوم يكون للإنسانية خالصاً ، وفى عيد يكون لسائر الناس منه نصيب ، وفى ذكرى ترتفع عن معانى التراب ، وحدود العصبية ، وضيق الجنسية ، وروح الحزبية ، ولا تزال ترتفع حتى تكون للدنيا سماء ، تشمل الجميع بظلالها ، وتعمهم بضيائها فى سائر الأرجاء . . .

ولا ريب أن ميلاد محمد العظيم عليه الصلاة والتسليم كان حدثاً عالمياً ، وكان يومه فتحاً جديداً للناس أجمعين ، فقد انتفضت به الأرض الهامدة من سباتها ورقادها ، فعادت خصباً وريا ، تجود بالأزهار والثمار ؛ وتحولت به الدنيا إلى وجهة راشدة ، فاستقامت بعد عوج ، وصلحت بعد فساد ، واعتدلت بعد طغيان ، وادكرت بعد نسيان .

واتسعت نعمة المولد النبوى حتى شملت كل راغب فى الاهتداء ، وكل متطلع إلى هدى السماء . فما جاء محمد صلوات الله عليه ليكون زعيم طائفة ، أو سلطان دولة بذاتها ، أوقائد جيش ، ولكنه جاء سفيراً من رب الجميع لهداية الجميع :

« يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » .

« وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً » .

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

* * *

ومن هنا كان واجباً على كل امرئ يشعر بإنسانيته ، ويدرك خصائص بشريته ، أن يجعل مولد محمد له عيداً ، وأن يوسعه تكريماً وتمجيداً ، فإن محمداً منقذ الإنسان ، لأنه رسول الرحمن .

ومن ذا الذى ينكر أو يكابر ، وهذا محمد قد أقبل فكان الصباح الوليد ، يعقب الليل الطويل ، فيغمر الكون بالسناء والضياء ؟ . . .

لقد أقبل محمد فوجد الدنيا بلا أخلاق ، إلهها مال يُعبد ، ومفزعها صنم أصم ، وقانونها شرعة غاب ، وطبائعها طبائع

ذئاب؛ والمرء بلا أخلاق «سائمة» ترعى مستزيدة لنفسها من كل شيء ، جميلا كان أو وبيلا ، نفيساً كان أو خسيساً ، والمرء بأخلاقه « إنسان » ، يحس ويشعر ، ويعطف ويتراحم ، ويعلو ويتسامى ، ويأنف من الصغيرة ، ويألف المكرمة ، ويُحسن خلافة الله فى الأرض .

فغرس محمد فى دنيا الناس أصول الفضائل ، بعد أن طهرها من أشواك الرذائل ، وهو القائل : « خياركم أحاسنكم أخلاقاً » .

« البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

« ما من شيء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء » .

« إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

* * *

والرسول الذى دعا الإنسان إلى أن يعفو عن ظلمه ، وأن يعطى من حرمه ، وأن يصل من قطعه ، وأن يكون نطقه ذكراً ، وصمته فكراً ، ونظره عبراً ، لم ينس أن الحياة حوض إذا لم يذد عنه صاحبه تهدم ، وأن العزة فريضة تتحقق بثمنها من الحيطة والحذر والتضحية ، وأن المرء لا يذوق طعم الحياة الكريمة حتى يكون شجاعاً مقداماً ، لا يحرص على الحياة حرص الجبان ، ولا يفر من الجهاد فرار الرعديد ، بل يوطد أيامه على أركان من الشمم والإباء ، والعزة والمضاء ، فلا يرضى الدنية فى دينه أو دنياه ، ولا يبيح عرينه وذماره لمن عداه ، ولا يهدأ له بال ، ولا يستقر به مآل ، حتى يكون كما خلقه ربه من الأحرار ، لا تخضع جبهته إلا لمولاه ، ولا يرضى بالخضوع إلا لله ، ولا يقنع دون القمة فى هذه الحياة : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

* * *

وها هوذا سيدنا ومولانا محمد يعطى القدوة من نفسه فى هذا الباب ، فقد كان فى شجاعته مثلا يقتدى وإماماً يحتذى ؛ وإذا كان قد قيل : إن لكل صارم نبوة ، ولكل جواد كبوة ، ولكل فارس هفوة ، فما عُرف ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

فقد خرج بنفسه فلقى العدو ، وشارك صحابته الغزوات ، وتقدم الصفوف ، وتعرض لأشد المواقف زلزلة ؛ ولقد فر أحياناً مَن فر ، وبقى هو ثابتاً كالطود لا يتقهقر ، وما أمره إلا إقدام أو ثبات . . .

سأل رجل البراء بن عازب الصحابى المشهور : أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ؛ لكن رسول الله لم يفر ، لقد رأيته على بغلته ، وأبو سفيان آخذ بلجامها ، والنبى يقول : أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب ! . .

وكان يومئذ حين فرار الناس ثابتاً ، يتلفت يمنة ويسرة ، ويقول : يا أنصار الله ، ويا أنصار رسول الله ، أنا عبد الله ورسوله ! . .

وفزع أهل المدينة ذات ليلة لصوت مخيف سمعوه ، فانطلق بعضهم جهة الصوت ، فلقيهم رسول الله راجعاً ، وهو على ظهر فرس لا سرج عليه ولا لبد ، والسيف فى عنقه ، وهو يقول لهم مهدئاً : لن تراعوا . . . لن تراعوا . . . فقد سبقهم ، وعرف جلية الأمر لهم ، وعاد إليهم مسرعاً ليطمئنهم ، وكذلك يكون شأن القائد المخلص ، الذى يقدر المسئولية ، وينهض بجلائل التبعات . . .

* * *

وكان ماهراً فى ضربة السيف ، كأنه حليف ميدان وطعان ، ضرب الكافر اللعين أُبَيّ بنَ خلف يوم أحد ضربة واحدة فوقع عن فرسه ، ولم يخرج منه دم ، وكسر ضلعه ، ثم هلك . . . وكان اللعين قد توعد الرسول حين قبل فداءه فى بدر فقال له : عندى فرس أعلفها كل يوم فَرْقا من ذرة أقتلك عليها . . فأجابه الرسول واثقا : أنا أقتلك إن شاء الله . . . وكذلك كان ! .

وقال علىّ : كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبىّ ، وهو أقربنا إلى العدوّ ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً . . .

وقال ابن عمر : مارأيت أشجع، ولاأنجد ،ولاأجود ، ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عمران بن حصين : ما لقى النبى صلى الله عليه وسلم كتيبة إلا كان أول من يضرب ! .

* * *

والشجاعة قوة غضبية فى النفس ، إذا لم تستمع إلى صوت العقل والحكمة ، أدّت إلى التهور والاضطراب ، ولا تجدى الشجاعة إلا مع الرزانة والوقار ؛ وكم من اندفاع أدى إلى خسار وبوار ، لأن الحكمة لم تقد زمامه ، ولأن التدبير لم يتولّ إحكامه .

ولقدزان رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام شجاعته برزانته وفطانته ، حتى يرى أمته على شرعة الإنصاف والاعتدال ، فلا إفراط ولا تفريط .

فمن وقاره ورزانته أنه كان طويل الصمت والسكوت ، فهو يصمت حلما أو حذراً أو تقديراً أو تفكراً ، وكان يعرض عمن يتكلم بغير جميل ، ليعلم المتكلم أن الرسول غير راض عن كلامه ، فيسكت أو ينتقل إلى حديث غيره ، وكان لايضحك إلا تبسما ، ولا يقهقه ، ولا تبدو نواجذه فى ضحكه إلا نادراً . وكان قليل الألفاظ إذا تكلم ، يختار جوامع الكلم ، ليغنى القليل عن الكثير ، حتى قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث حديثا لو عَدَّهُ العاد لأحصاه . . .

وكان يقول : «الأناة من الله ، والعجلة من الشيطان» ويقول : « السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوّة » .

ورغم أناته فى أعمال دنياه ، كان مجداً فى عبادته ونجواه ، وتقربه لبارئه ومولاه ، ولذلك قال : « التؤدة فى كل شىء خير إلا فى عمل الآخرة » .

* * *

هذا شعاع من نور النبوّة يدلكم على الشمس الساطعة التى تعالت ومع ذلك دنت ، والتى بهرت وفى الوقت نفسه تواضعت ونفعت ، والتى جمعت بين كرم المحتد ، ونُبْل الخلق ، وبعد الهمة ، وأصالة الرأى ؛ فكانت للإنسانية نبراسا يهديها إلى مكارم الفعال . . .

فلِمَ لايكون ميلاد هذه الشمس عيداً لكل إنسان ؟ ولم لا تكون ذكراها تجديداً لهذا الوجود ؟ .

* * *

يا أتباع محمد عليه السلام :

لقد آن لكم أن تبعثكم ذكرى رسولكم ، فتنطلقوا من إسار همودكم وجمودكم ، عمالقةً فى الكون الوسيع بعلمكم وعملكم ونضالكم ، ملائكةً تمشون بين الناس بأخلاقكم ومكارمكم ، مؤمنين نافعين ، كما تستفيض فى الأرجاء أشعة النور ، مسراها فى مدارج الأرض ، ومنبعها من عنان السماء .

أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف